

على الجبهة الثقافية

بقلم عبد اللطيف شارة

المبارتين واحدة ، وهي أن العمل السياسي مفيد ضمنا ، أو بفرض فيه أن يتقيد بما يتوافق عليه المجتمع من قواعد السلوك العام ، وما تنطوي عليه هذه القواعد من قيم خلقية ومثل عليا انسانية . وكانت معايير النقد الاجتماعي والسياسي ، تجد جذورها في أوامر الشريعة ونواهيها ، ومنها تستمد قوتها ، وعليها يرتكز نظام الحياتين: الشخصية والعام في اطار الثقافة الشائعة لدى العموم ، أي تلك المطلقة من كل نعت أو نسبة الى قوم أو بلد ، والمتمثلة في « اللطف والنور » كما يعبر ماتيو ارنولد . وكان يستحيل على الناس ان يجدوا في اللطيف الجافي من الرجال امرا مثقفا ، أو يقرأوا للعنف والاحتياط والنفاق بقيمة ، تواريا خلف باع طويل في المعرفة ، وشهرة عريضة في الفيزياء والكيمياء مثلا أو التبحر في التاريخ والفلسفة !

ولكن الجو الفكري العبراني السذي ساد أوروبا في القرن الماضي ، والذي يسود اميركا الشمالية اليوم ، استطاع - وهو جو بدائي ليه الجنس وقشره ارفاه والترف - أن يستغل القانون ويحتال عليه ، في الوقت نفسه الذي يسمى به في الداخل ، وراء تفويضه ، وافراغه من كل محتوى انساني يمكن أن يحمله ، ليضيع محله محتوى عنصريا ، نفعيا ، سياسيا ، غير انساني ، في أي جانب من الجوانب .

لقد كانت « اسرائيل » حتى الى نصف قرن خلا ، « حلما » من الاحلام يراود نوعين من الأذهان في العالم : الذهن اليهودي المستغرق في التوراة ، ومآسي التوراة ، وظلمات التلمود ، وشرائع التلمود ، ثم الذهن الاستعماري الذي لا يشهد في العالم غير الاسواق ، والطرق التجارية ، والمواقع الاستراتيجية ، والمنازعات الدينية ، والخلافات المذهبية ، وصراع الطبقات الاجتماعية ، لينفذ من خلال هذه الابواب كلها الى السيطرة والتحكم .

وأناحت التطورات التاريخية التي مرت بها كل من اوربوا واميركا لهذين النهين : اليهودي والاستعماري أن يأنلغا ، ويتعاونوا ، ويتصامنا - وتعاونهما في حقيقته الفاعلة ، ضرب من التامر او التواطؤ - حتى انتقل الحلم الى واقع ، وتجسدت الفكرة في دولة .

ولكن ما من فكرة تتجسد ألا وينطوي تجسدها على عناصر أصولها ، ومحتويات أصولها ، ولا يمكن ابدا للجسد هذا ان يحتفظ بحياته اذا هو نبذ أصله الفكري ، أو انفض على الاساس الذي قام بنيانه فوجه ، ان في ذهنه ، وان في أذهان الآخرين .

لننظر الآن الى اسرائيل - الحسلم ، كي نقرانه باسرائيل - الواقع : أول ما نجد ان الذهن الاسرائيلي الحقيقي ، الفاعل ، الذي يحمل في أقصى نلايفه الدولة اليهودية الخالصة من كل شائبة غير يهودية ، عنصرا ودينا وثقافة وسياسة ، الممتدة من النيل الى الفرات ، بدأ ينفصل شيئا فشيئا ، عن الذهن الاستعماري الذي كان يجد ، ولا يزال على غفله لدى كثيرين ، في اسرائيل - الحلم أداة استقلال ذاتي ، وسبيل منفعة قومية ، وتامينا لمصلحة سياسية أو استراتيجية . وهذا « الانفصال » بين الذهنين الذي توقعه « مهندسو » اسرائيل ، واحتاطوا له أشد الاحتياط ، قدر لا محيص منه ، لان ائتلافهما في الاصل ، كان حادنا « سياسيا » ، موقنا ، معقلنا على قاعدة مصلحة خالصة ، فاذا انتفت منه المصلحة فسي ظرف ، أو بلغ أحد طرفيه غرضه ، انهار من تلقاء نفسه ، وطبيعة وجوده .

ويتضح هذا الموقف على نحو أجلى فاجلى ، حين نواجه ما كان

يواجه النقاد في هذه الايام ، وفي ديارنا العربية خاصة ، عدا من المصاعب والمعضلات يتجاوز طاقاتهم بضخامته من جهة ، وما تحمل كل معضلة بمفردها من عقيدات لا حصر لها ، من جهة أخرى .

وليس المراد بهذه الفئة - أعني فئة النقاد - جماعة معينة من « المحترفين » على الصعيدين الادبي والفني فحسب ، وانما أفصد هنا ، جميع هؤلاء الذين « ينتقدون » ولا يعملون في كل حقل ومجال ، لا سيما في مجالات السياسة ، والاجتماع ، والثقافة ، وتقييم الافراد والشعوب ، والمحاضرات على الاخص الاخص . فاذا أنت أخذت في تعداد هؤلاء اليوم ، وحشرتهم مع « النافدين » ، أي حيث يضعون أنفسهم ، تسامحا منك أو تواضعا أو مداراة - ولك ان تختار واحدا من هذه البواعث الثلاثة - وجدت في نهاية المطاف ، أنك أعجز من أن تضي في التعداد الى غايته ، ثم وجدت أن التعداد نفسه أعجز من أن يستوعب تلك الفئة المنتشرة في طول العالم وعرضه ، مع انتشار انحزيات ، والايديولوجيات ، والدعايات ، والمخابرات ، والاستخبارات من كل جنس ، ولون ، وملة ، وبلد !

ها نحن نصل من هذا الوضع الى الموقف نفسه الذي وصل اليه في ستينات القرن الماضي نافذ شهير ، ومفكر معروف ، هو مايو ارنولد الذي لم يكذب يلبس خاتمة العقد عام 1869 ، حتى أصدر مجموعة محاضراته حول الثقافة بعنوان « الثقافة والتفوضى » ، وطبع يومذاك على أناس عصره بهذه الفكرة ، وهي أن لا سبيل الى الخروج من مأزق العصر الا بتعميم الثقافة ، وبسير وسائل تفلغها على أوسع مدى . وكان من رأيه أنه يجب الرجوع عن « العبرانية » التي سادت أيامه ، الى « الهلينية » . وذلك لان الأولى أبعد ما تكون عن الثقافة الحقيقية ، فان هذه لا بعدو أن تكون ، في جوهرها ، « نطقا ونورا » ، وليس لدى العبرانيين سوى العنف ، والكيد ، والنفعية ، والمضاربات المالية والسياسية .

ولا يحتاج التأمل في حياة العصر ، الى كبير عناء ، ليدرك ان بلاء المجتمعات الحديثة ، ينلخص جملة وتفصيلا في هذه المساواة الخلقية التي انقلبت بالعدوى من العبرانيين الى غيرهم من الشعوب التي اتصلوا بها ، وعلى الاخص في اميركا ، واوربوا .

وقد أخذت مسألة الثقافة تطرح نفسها من جديد على المعاصرين ، في كل مكان من العالم ، على وجه التقريب ، حين فر في روعهم ان السبيل الوحيد الى التخلص من تلك المساواة ، انما يمكن في بناء الانسان على أسس جديدة ، ورعاية حياته الفكرية والعاطفية والعملية ، بحيث يتوجه نحو السلام ، وانصاف الآخرين ، والابتعاد عن التعرض لحقوقهم بما يسميهم اليهم ، وبالتالي اليه ، ومكافحة العنصرية والاستعمار .

وبلك هي منطلقات الاونسكو ، وأفراضه العلنة . وهي أبرز مثال على منجهات العصر ، في تطلعاه ، وآماله ، ونزعاته . ذلك يرد قضيه الثقافة ، الى دائرتين : السياسة ، ثم الى التربية .

- 1 -

« السياسة تتبع خطى القانون » . ذلك هو المعروف من شأنها في هذا الزمن . وكانت في المحيط العربي - الاسلامي ، وهو المحيط الذي انبثقت منه حضارة القرب الراهنة ، أو جاءت على اثره في الزمن ، كانت السياسة في ذلك المجتمع « تنمر بأوامر الشريعة وتنتهي عن نواهيها » ، أو هكذا كان يفرض فيها أن تكون . وروح

قواعدها ، بعد أن هدمت بيوت الفلاحين ، وقتلت ما قتلت من الإبرياء .

تلك هي السياسة التي انجلت عنها الثقافة العبرانية ، وهذا هو مدى اتباعها خطى القانون ! والعرب وحدهم في العالم ، هم المتخلفون !

- ٢ -

هذا النوع من السياسة الذي ظهر ، وفشا أمره ، واستشرى خطره في أعقاب الحرب العالمية الثانية يؤكد ، بمدى ما يلقي من تأييد في بعض الأوساط ، أن السذنين يمتلكون العلوم الحديثة ، والتقنيات المتقدمة ، والوسائل الفعالة والقوى المدمرة ، من غير سيطرة (« خلقية ») عليها ، هم أبعد الناس عن الثقافة الحقيقية ، وأقربهم إلى التوحش الحيواني الصرف السذي تشهده في سيرة الصباع والسذئاب والأفاعي والحشرات المترسة ، ولا تكون علومهم وتقنياتهم ، بعد كل حساب ، سوى امتداد لظفارهم وبرانهم وأنيابهم ...

هنا ، نلج الدائرة الثانية من قضية الثقافة المعاصرة ، وهي « التربية » . وهذه أصابها ما أصاب « السياسة » على أيدي العبرانيين وأنصارهم ، من تخلخل واضطراب وفساد ، في كل حقل ومجال ، إذ انكبوا على النواحي الجنسية ، وصرفوا نحوها القول والاختيل والإرادات ، حتى أصبحت الشغل الشاغل ، والههم الملزم لكل طالب وطالبة ، وكل فتى وفتاة ، وأحاطوها بهالات من الفلسفات ، والاصطلاحات الجديدة ، والإعلانات في الكتب والصحف والأفلام والإذاعات ، ثم عمدوا إلى استقلالها في تحقيق بعض من أغراضهم السياسية ... والعالم من حولهم (« بلهو ») و (« يلفظ ») في هذه الشؤون ، و (« بشرثر ») غير واع لا يراد به ، ولا ملتفت إلى النتائج التي يمكن أن يقضي إليها ذلك الاندفاع وراء فرويد ، وبرغسون ، وماركوز ، وغيرهم من دعاة (« التحرر الجنسي ») ، وأسانذة الثقافة الجنسية !

ولقد كانت صفات الإنسان المثالي ، ولا تزال ، معروفة في كيان كل متحضر ، من أقدم العصور إلى اليوم ، وهي تتمثل في المزايا الأساسية التي لا يملك أحد انكارها ، ألا وهي : السيطرة على النفس والشعور بالقيمة الذاتية من غير مبالاة ، ووضع الأشياء في مواضعها ، والثبات في مواقف الروع ومواجهة الصعاب ، والأذعان لما لا سيجل إلى تجنبه .

هذه المزايا التي توفرت لزمان الرقي في كل أمة ، على تقديرها ، والدعوة إليها ، ونبذ ما يناقضها ، تؤكد أن المراد من « التحرر الجنسي » ، حمل الناس على الاسترسال مع النزوات والشهوات ، والهائم بالسفساف والترهات ، ومقاومة كل تطلع يجيش في نفوس الفتيان والفتيات - الفتيات خاصة - نحو الأرقى والأكمل والأفضل من شؤون الحياة والمجتمع ، لأن من شأن الجنس حين يطفى ، أن يستقطب فعاليات النفس ، ويستحوذ على الخيال ، ويشل النشاط . وتلك هي المؤامرة التي وقعت أوروبا في حبالها ، وانتقلت إلى الشرق في الحقب الأخيرة ، ولا يزال المضي في تنفيذها ساربا ، جاريا ، تحت علم مموه من الفلسفة ، والفن ، والأدب الحديث !

هكذا ، وعلى هذا النحو ، ارتطمت ثقافة العصر كلها بأوحال الجنس ، ولم تجد المخرج بعد منها ، ولا وفقت إلى تحويل الجمهور عنها ، لأن ثمة في عالم (« اللامنظور ») قوى شريرة ، تعمل خفية وجبرة ، على إبقاء هذا الجو ، والإفادة منه . والذين حاولوا التقلب على هذه الحال من مفكري أوروبا وأميركا لم يوفقوا إلى التقاط ذلك اللامنظور ، والقاء النور عليه ، وفي مقدمة هؤلاء أنان : روم لانوس ، وهربرت ماركوز .

جهد الأول في بيان العلاقة بين الجنس والحياة والإيمان ، واهتدى إلى خطر الخيال في هذه العلاقة ، ووضع يده أو كاد ، على حقيقة الداء ، ولكنه أخفق في القاء القبض على الذين بثوا السم

يدور في أذهان الآخرين أيام إسرائيل - الحلم ، إذ كانت السياسة الإسرائيلية تتبع - في الظاهر ، والظاهر فقط - خطى القانون ، وتستمرخ العدالة في الضمير الإنساني ، وتحتمي بالمسكنة ، وتفتن أدق الاقتنان في تصوير المظالم والاضطهاد التي تعرض لها اليهود على أيدي القياصرة في روسيا ، و (« الطفمة النازية ») في ألمانيا ، وحماة الكنيسة في الدول اللاتينية من إيطاليا إلى فرنسا إلى إسبانيا ، حتى إذا قامت منظمة الأمم المتحدة ، في أعقاب عصبة الأمم ، وجد الحلم الإسرائيلي سبيله إلى الانتقال من حيز الخيال إلى الواقع ، وكل ما هو قائم في الأذهان بومئذ ، خارج المنطقة العربية ، أن لصحابيا الجور النازي أخيرا ، أن ينالوا حقهم في الراحة ، وأن يعيشوا كغيرهم من البشر ، كما يريدون على أرضهم ، ضمن دولة تحميهم من الاضطهاد ، وتدرأ عنهم عوادي الجوع والحرمان والعداب ! أما الحقيقة ، حقيقة ما يريد اليهود من هذه الدولة ، وما يهدف إليه مؤيدوها من أغراض ، ويدفعهم من حوافز ، فهذا ما لم يفكر فيه أحد ، لكثرة ما كان العالم يعاني من مشكلات وآلام ، وكثرة ما ملأه به اليهود من أصوات استغاثة ، واسترحام ، وتمسك ، ودعوة إلى الانصاف . وكانت ، على الأثر ، وفي ظل الأمم المتحدة وميثاقها ، إسرائيل - الواقع .

وعند هذا المنعطف التاريخي في حياة المنطقة العربية - وقد أصبح اسمها (« الشرق الأوسط ») - وجد الناقمون على العرب من كل جنس ولون ، والمضطادون في المراء العكر من كل ملة وبلد ، سبيلا إلى النيل من الثقافة العربية ، والخلق العربي ، والأزراء بكل من هو عربي وما هو عربي ، مما رستخ إسرائيل في أحلامها التوسعية ، وجعل (« البطر ») يخيم على تصرفاتها ، ويحمل مؤيديها في كل مكان ، على استرجاع ما فقدوا من مطامح وأحلام ، خلال الحربين العالميتين : الأولى والثانية .

ساد هذا الجو - العبراني - خلال الفترة ١٩٤٧ - ١٩٥٧ ، فكان يخيل أثناءها لمن يتتبع شؤون السياسة الدولية أن العرب وحدهم هم المسؤولون عن كل ما يجري في أقاصي الأرض وأدانيها من ظلمات ، وموبقات ، وعوامل تخلف ، وأسباب انهيار وانحطاط في الحضارة ، وكان غيرهم من أمم الأرض وشعوبها ، غير مسؤول عن شيء أبدا .

ولكن الأشهر الأولى من العام ١٩٥٧ شهدت تبادلا تدريجيا في ذلك الجو ، وما أطلّ الأسبوع الأول من شهر آذار (مارس) حتى اضطرب بن غوريون ، رئيس وزراء إسرائيل آنذاك ، إلى الإعلان في (« الكنيست ») ، أنه لا بد من (« الأذعان ») لما يريده الرئيس الأميركي أيزنهاور ، ألا وهو الانسحاب من غزة !

كان كل ما حدث ، على صعيد السياسة ، لا القانون ، أن تصدع الائتلاف الذهني بين اليهود والاستعماريين في الجانب الأوروبي منه ، وتبين أن الذين قاموا بحملة السويس استرداداً منهم لأحلامهم الخائبة ، أرادوا شيئا لا يريده الجانب الأميركي ، وأدرك الإسرائيليون الثمبون في الشرق ، وإسرائيليو الهوى ، في القرب ، أنه يمكن راب هذا الصدع الخطير في الاستعاضة بالجانب الأميركي عن الجانب الأوروبي لتحقيق ما تبقى من حلم إسرائيل في حيز الخيال ، وطفقت الجهود السياسية تتسرب في هذا الدهلين ، وتتجمع عنده ، حتى خرجت إلى النور في ٥ حزيران (يونية) عام ١٩٦٧ ، ونزعت السياسة الإسرائيلية قنصاعها ، بعد أن انتزعت الاحداث عن وجهها ، فإذا هي تهزأ بالأمم المتحدة وميثاقها ، وتضرب عرض الحائط بالقانون ، ولا تأبه لتحذير أو نصيحة ، حتى إذا حلت طائرة استطلاع مصرية فوق سيناء المصرية ، تذكرت إسرائيل أن هناك منظمة للأمم المتحدة ، ومجلسا للامن ، وأرسلت شكوى عاجلة أن مصر تنتدي على (« أمنها ») في الوقت نفسه الذي تكون به الطائرات الإسرائيلية التي اغارت على الصرند في لبنان - وهي تبعد نحو من ستين كيلومترا عن إسرائيل داخل الأراضي اللبنانية - قد عادت إلى

في فضاء العصر ، ونشروا الوباء ، وكانوا في مسالكهم « المدنية » على صعيد الاجتماع والثقافة ، لا يختلفون أبدا في شيء عن هؤلاء الذين يستخدمون الاسلحة الجرثومية والغازات السامة وفتابيل النابالم في ساحات القتال .

يقول روم لاندو : « كلما كانت قدرة انسان ما على التفكير محدودة - ولا يمكن أن يكون هناك فكر بغير ترو ورفابة - يصبح تحت رحمة أحلام اليقظة ، ويقل كبحه لوثنيات خياله الجنسي ، أو لتزوات حياته الجنسية نفسها . ذلك لان خياله هو الذي يذكي ، في المنزلة الأولى ، حرارة هواه ، بعد وضع المطالب المشروعة لتداجته الجنسية ، على حدة . ومن الخطأ الفادح الاستنتاج ، على أي حال ، ان الخيال الطليق والبليلة الجنسية ، يقتصران على البدائي ثقافيا ، فان مجرد البساطة لدى هذا ، تستنفذه من الحوافز التي لا تحصى ، والتي يستجيب لها عن طيبة خاطر الجسد الجنسي لدى من هو أكثر منه تحضرا . » (1)

والواقع ان هذه الحوافز الجنسية التي لا تحصى ، وجدت من يذكيها في حياة المتحضرين ، ويمدها بالفداء حين تهزل ، ويستغلها أخيرا لأغراض سياسية واقتصادية ، وحتى عسكرية في حالات « الصراع » بين القوميات ، والايديولوجيات .

ذلك بأن تأثير المثقف - أدبيا كان او علما او فنانا او فيلسوفا - لا يكون ، ولا يمكن ان يكون الا في مجتمع يتأثر بانتاجه ، ويهتم بما يصدر عنه ، ولا فرق ان يكون هذا الاهتمام سالبا او موجبا ، وحين ينصرف اهتمام المجتمع الى النواحي الجنسية فذلك يعني ان وراء هذا الاهتمام سياسة « غير منظورة » ، وتوجيها خفيا بفعل فعله في تربية الافراد والجماعات على السواء ، وقد وضع بجلاء - كما رأيت في تقارير لاندو - ان المتحضر أكثر استجابة للحوافز الجنسية من البدائي ثقافيا .

لا بد اذن من العودة الى مزايا الرجل المشالي ، الى تربية الشاب والفتاة على التحلي بتلك الزايات منذ نعومة أظفارهما ، اذا أريد للحضارة ان تبقى ، او على الأقل ان تتمتع بالعافية ، ولا تنقص وجودها آفات الجنس وعلله وأخطاره .

لكن هربت ماركوز لا يرى هذا الرأي ، وبحسب ان مثل هذه التربية محكوم عليها باللجوء الى « القمع » ، وقد ثبت لديه ان الحرية اجدى في تطهير النفوس من أدرانها ، وانفاذ المجتمع من الاستغلال والسيطرة ، وان هذه الحرية تفضي مع الزمن الى « حساسية جديدة » ، وهذه كفيلا بمقاومة التفاهات على أنواعها ، من بذخ وتبذير ومنازعات حمقاء ، وأقبال على الزينة والرفاهة .

والحقيقة ليست هناك ، فقد أفلتت هي ايضا من فكر ماركوز ، وخياله ، ونظرته الى المستقبل ، فالقمع الذي يقاومه ماركوز ، هو الذي يرد على النفس من خارجها ، وتنظمه القوانين الخاصة التي يسنها لمصالحهم الخاصة ذوو المصالح ، والراغبون في الاستغلال والسيطرة .

كلنا في ذلك الى جانبه ، ولكن ماركوز الذي يزدهيه اللطف والنور ، ويفرح بالجمال حسنين يعم ويتفلقل في مسالك الافراد والمجتمعات على السواء ، ينسى ان هذه المعاني لا تتحقق ، ولا يعقل ان تتحقق من غير ثقافة جديدة ، تصرف همها ، كل همها ، الى اقناع الفرد - والمجتمع بالتالي - بحاجته الملحة الحيوية الى ممارسة « قمع ذاتي » لتزواته ، وشهوته ، وشطحات خياله ، من غير ان يفرق في ليجج اليأس والعممية ، وبشيء في مجاهل الكتابة وأدغال الشؤم والنقمة على الوجود ، والسعي في سبل العنف والتخريب .

ولا ندحة لحضارة انسانية تريد ان تعيش بعد اليوم ، عن تجديدها ثقافتها من هذه الزاوية ، زاوية القمع الذاتي ، للتمكن من القضاء في أول منزلة ، على العبوديات الشفسية والمطامح العدوانية ، والاحلام التوسعية .

وما الحديث عن الحرية الجنسية ، وطفان الفرائز على العقول ، وتحكمها بالانسان في كل مكان وزمان ، الا أحد معطيات الثقافة العبرانية العتيقة التي ما انفكت الانسانية تحاربها ، منذ فتح لها السيد المسيح أبواب محاربتها على جميع الجبهات ، الى يومنا هذا .

- ٣ -

... واذا كان انفاذ الحضارة الحقيقية لا المزيفة ، يتوقف كما رأينا ، على الجد في سنّ القوانين العادلة وتطبيقها - لان ثمة قوانين جائرة كذلك التي تسنها اسرائيل داخلها - ثم على تربية تزود الانسان المعاصر بمزايا جسدية وعقلية وخلقية ، تمكنه من مقاومة العبوديات في نفسه ومجتمع ، فلا بد ان تلقى هذه السياسة الجديدة الهادفة الى العدالة وطنيا ودوليا ، معارضة من جانب هؤلاء الذين تقوم حياتهم على الجور ، والتمييزات من كل نوع ، ومن شأن هذه المعارضة أن تؤدي بدورها الى قطع الطريق على التربية المشوذة ، اذ ينشأ عند ذلك ضرب من « الصراع » السياسي ، والاعلامي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، تضع فيه الحقائق ، ويضل معه الجمهور ، وجمهور المثقفين في كل مجتمع ، على الاخص .

هنا يفتتح المجال امام اعادة النظر في هذا الواقع ، واقسع الصراع ، الذي جعل ماركس « يعلم » في أن يؤدي الى وقف « استقلال الانسان للانسان » عند نهاية المطاف ، وقد ركّزه بين طبقات المجتمع ، على أساس اقتصادي صرف .

ولكن البلاد بهذا الصراع أعظم مما تصور ماركس ، وأعق ، لانه يقوم ، كما تبين من مجرى التاريخ المعاصر ، بين ثقافة وثقافة ، أي بين سياسة وسياسة ، وتربية وتربية ، ووراء كل ثقافة عوامل تاريخية وجغرافية ، كما ان امام كل ثقافة أهدافا تسعى اليها ، وتؤمن بألويتها .

صحيح ان ما يفرق الناس ويحدث الشقاق بينهم ليست هي الافكار ، وانما هي المصالح ، والاهواء ، والطباع ، والأذواق ، ولكن عوامل التفرقة هذه قابلة جملة وتفصيلا للتفسير والتعديل ، وللعقل في تعديلها وتغييرها اثر لا معنى لانكاره ، وقد وضحت في هذا العصر خاصة ، قيمة العلم ، وفائدة الادب ، وجدوى الفن ، رغم ان العلم خسر على يد السياسة العبرانية فعاليته التربوية ، والادب خسر في اطار الحياة المادية الراهنة روحانيته الاصيلية ، والفن خسر الكثير من جماليته بفعل الاباحية ، والحرية المصطنعة اللامسؤولة .

هذا معناه ، في التحليل الأخير ، انه لا غنى عن درس كسل صراع ، مهما كانت صفته ، على حدة ، ورده الى أصوله الثقافية ، والحكم عليه أخيرا من خلال الفايات والاهداف الحقيقية التي يسعى اليها كل طرف من أطراف الصراع ، وعند ذلك وحده ، يتبين وجه الحق ، ويذول كل حجاب يستتر الباطل وراءه .

اقول ذلك ، وامامي الآن كتاب وضعه جوزيف فاينبرغ ، عنوانه « الحقيقة عن الصراع الاسرائيلي - العربي » (٢) ، حشاه مؤلفه بسبعين صورة عن قصاصات جرائد ، وعناوين كتب ، اعتبرها « وثائق » تدبّن العرب ، والسوفيات ، وتبرئ ساحة الاسرائيليين من كل خطأ ، او محاولة خطأ ، او نية خطأ ، دون ان يذكر شيئا هذا الباحث « الموضوعي » المستند الى الوثائق - وكلها دعايات ، وألعيب اعلامية ، ومناورات صحفية - عن وعد بلفور ، والفسارات على : دير ياسين ، والسموع ، وقرى الجنوب اللبناني ، ومذبحة

(٢) انظر :

Joseph Veinberg , La vérité sur le conflit israelo arabe (C.E.F. 1970)

(١) انظر :

Sex , Life And Faith , by Rom Landau , Faber and Faber Limited , London , 1945) P . 21

كفر قاسم ، وتهجير السكان العرب في غزة ونابلس وغيرها ...
ولكن هذه وقائع ، وليست « وثائق » تستحق ان تذكر الى جانب
ما قالته « الاهرام » و « الليومند »

و « الفيغارو » ، الخ ...
ومع ذلك ، يزعم عنوان الكتاب انه « الحقيقة عن ... » .

الحقيقة انه ليس هنالك « نزاع اسرائيلي - عربي » ، ولا كان
العرب يوما من الايام ينازعون الاسرائيليين او يظهدونهم او
يعتبرونهم اندادا لهم وأخصاما . ولكن الاسرائيليين هم الذين كانوا ،
ولا يزالون ، يدخلون في نزاع مع الروس ، والامان ، والطيان ،
والفرنسيين ، والاسبانيين ، وأخيرا ... مع العرب (انظر مسادة
(صهيونية) في الموسوعة البريطانية الكبرى)

والحقيقة انه يمكن الحديث ، على نحو موضوعي خالص ، عن
« نزاع بريطاني - عربي » حول استقلال فلسطين عهد الانتداب ،
كما يمكن الحديث في هذه الايام ، عن « نزاع اميركي - عربي » حول
حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ، واسترداد وطنهم وأراضيهم ،
ولا يصح بحال جعل الاسرائيليين طرفا في النزاع ، لان هؤلاء كانوا
ولا يزالون ، « طفيليين » على المارك الذي خاضها الاستعمار فسي
هذه المنطقة ، فكانوا ينتصرون بانتصاره ، وينهزمون بانهزامه .
والاختلاف بين اليهود والعرب ، لا يقترب أساسا عن كل اختلاف
يهودي مع الشعوب الاخرى التي كانوا ينازعونها من تلقاء أنفسهم ،
على مدى العصور ، وفي مختلف البلدان ، أي انه « خلاف ثقافي »
أولا وقبل كل شيء ، وبالتالي خلاف في الطباع ، والأذواق ،
والميول ، وأخيرا في الاهداف والغايات .

ذلك يفيد انه كان على جوزيف فاينبرغ ، لو كان يتحرى الحقيقة
فيما يكتب ، ان يتحدث عن « النزاع الاسرائيلي - الانساني » لان
طباع الاسرائيليين ، كاهدافهم وغاياتهم ، تتنافى والتطلعات الانسانية
السليمة الى حياة يسودها العدل ، والامن ، والرءاء ، والسلام ،
وتناى عن الطفيلية ، والتمييز العنصري والديني ، والاعتداء على
الآخرين ، وتشويه وجوههم بقنابل النابالم ، وتآليب الاميركان على
السوفييات ، والاكرد على الاتراك ، وما أشبه من دسائس على كل
الشعوب ، وبين جميع الشعوب ، ليثبتوا في النهاية ، انهم « شعب
الله المختار » ! فهل يستطيع فاينبرغ أن ينكر هذا الأساس فسي
سياسة اسرائيل وتربية أبنائها ؟ هل يملك وثيقة تردّ عن الاسرائيليين
تهمة التواطؤ مع كل أجنبي عن المنطقة ، وتهمة الاعداد الدائم لحرب
تخوضها اسرائيل ضد الانسانية كلها ، كي تنفذ منها الى تحقيق
حلمها في توسيع دولتها من النيل الى الفرات ؟

الحقيقة أخيرا هي ان الاسرائيلي عاجز - وان بدا منتصرا -
عن فهم العالم الذي يعيش فيه ، وهذا العجز ناشئ عن التربية
التي تكون عقله على يدها ، وسياسة النفاق التي يسلكها حين
يتحدث عن السلام ، أي عن ثقافته بتعبير آخر ، وسائر ما ينبثق
عنها في كل فرع واتجاه .

اما النجاح العسكري الذي أصابته اسرائيل في الحرب الاخيرة
التي شنتها للتوسع واغتصاب الاراضي من أيدي اصحابها الشرعيين ،
فانه مقتصر على صفته العسكرية ، ولا يعني شيئا آخر ، فهو يشبه
النجاح الذي أصابه هتلر في مستهل أمره ، كما انه يكشف عن
غور الاخفاق الثقافي ، وحقيقة الانهزامية السياسية الكامنة في
اعماق الكيان الاسرائيلي ، ولا يحتاج ذلك النجاح ، ليظهر على
حقيقته ، الا ان يعرف العالم ارتباطه العضوي بالاستعمار ، وأهدافه
العنصرية والتوسعية ، تماما كما حدث لهتلر وأعوانه ، ومناصريه
في الخفاء .

وكل ما في الجو الثقافي الآخذ في الصحو والنقاء ، يبشر على
نحو ملموس ، انه حين يرتفع المستوى العقلي في اميركا الشمالية ،
وتتضي المنظمات الدولية حقا وصدقا ، في تحقيق اغراضها ، وتطبيق

مبادئها ، ومنظمة الاونسكو منها خاصة ، تتوارى اسرائيل ، ونذوب ،
ولا يبقى منها سوى خبر من اخبار التاريخ ، ودليل ساطع يضاف الى
غيره من الأدلة ، على ان الاغتصاب وانتهاك الحقوق يمكن ان « ينجح »
لفترة قصيرة ، ويستحيل أن يدوم .

— { —

قد يرى بعضهم من ذوي العقول العبرانية في اوربا واميركا ،
وحتى في ديار العرب ، او ممن تأثروا ، على نحو أو آخر ، بدعايات
اسرائيل او بانتصاراتها المزعومة ، اننا نحاول هنا أن نبعد الغيوم
التي اربدت بها سماء الحياة العربية في الآونة الاخيرة ، أو أن
نبعث الامل والتفاؤل ، صدّا لتيار التشاؤم الذي أحدثته التمزقات
العربية ، استنادا منا الى النقمة التي تملأ صدور العرب على
اسرائيل وأعوانها ، أو تفجيرا للاحتقاد التي تراكمت منذ اكثر من
نصف قرن على الذين زدوا اسرائيل ، ولا يزالون يزودونها ، بوسائل
الفترة والعدوان ، والتصلب في موافق العدوان والفترة .

وواقع الامر اننا نستند في كل ما بيّناه وأوضحناه على الجبهة
الثقافية ، الى موقف اسرائيل نفسها في الخارج والداخل ، على
السواء ، لا الى موقفها مع العرب وحدهم .

ذلك بأن اسرائيل تناصر العدوان والاغتصاب في كل مكان ،
وتحارب حركات التحرر في كل مكان ، ولا تخرج كلمات السلم ،
والعدالة ، والحق ، من أفواه أبنائها وانصارها الا مشوبة بالحذر ،
مغلقة بغلاف كثيف من الانانية العميقة التي تريد الاستئثار حتى
بمعنويات تعمل في الحقيقة على تهديمها ، ولا تؤمن بها حتى لنفسها .

وأظهر ما يظهر ذلك في تركيب مجتمعا الداخلي ، فهي لا تعرف
حتى الآن من هو الاسرائيلي ، ولا من هو اليهودي الذي قامت من
أجله ، كما ينجلي بوضوح يهر الابصار في اضطراب قضائها ومفكرها
وزعمائها عند هذه القضية ، وهذا ما بسطه امنون روبنشتاين ، عميد
كلية الحقوق في جامعة تل ابيب (٣) ، اذ بيّن ان « مفهوم الهوية
اليهودية كله ، بمعناه التقليدي ، انما يقوم على أساس من الميثاق
(بريت) العفود بين الله والشعب اليهودي . وهذا الميثاق الابدي
(بريت اولام) يفسر الهوية المستمرة التي تربط الشعب اليهودي
اليوم باسرائيلي الميثاق ، وهي الصلة الدائمة التي ترتكز عليها
فكرة العودة الى صهيون ، برمتها » .

هذه العقيدة وحدها تكشف بما لا يدع مجالا لاي شك ، ان الحق
في ذهن الاسرائيلي حقان : الاول داخلي ، والثاني خارجي ، وللاول
سيادة على الثاني ، فلا يمكن ان يكون لاي أجنبي عن اسرائيل ، أي
حق في الحياة او في المواطنة ، اذا لم يكن في الاصل من وجوده ،
أحد أطراف الميثاق الابدي ، مما يشير الى عنصرية تهون معها
عنصرية هتلر .

وما يقال عن فكرة « الحق » في حياة اسرائيل وعقول ابنائها ،
يقال بعذافيره عن فكرة « السلام » . فهناك سلامان : الخارجي وهو
الحرب ، وداخلي وهو الذي يؤمن لاسرائيل السيادة على العالم ،
بهن فيه من اميركان وسوفييات وصينيين ، فاذا تحدث الاسرائيلي عن
السلام في الخارج ، فهم مواطنوه في الداخل اتنه يعني الحرب ،
ولكن الامر « سرّ » بين أطراف الميثاق الابدي !

تلك هي الثقافة العبرانية ... اترانا في حاجة بعد الى الشرح
والايضاح ؟! وهل للعرب ان يعرفوا واجبهم ، وبؤدوه ، ويلتزموا به
على هذا الصعيد ، صعيد الثقافة ، في مجالات الاعلام ، والتربية ،
والتعليم ، والسياسة ، والادب ، والصحافة ؟!

عبد اللطيف شراره

(٣) انظر

Who's a Jew , and Other woes , by AMmnon Rubirstein
Encounter , March 1971) P. 84 .